
سِتُّ رَصَاصَاتٍ...
...وَوَلَّاعَة!

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم
وَبِهِ نَسْتَعِيْن

سِتُّ رَصَاصَاتٍ..
..وَوَلَّاعَة!

تأليف:
المعتصم بالله المؤمن

(١)

شهدت أدراج البناء المسكينة وقع خطواتٍ قاسيةٍ على أحجارها..
تلك الخطوات التي لم ولن تشكّ الجيران بشخصيّة صاحبها الذي كان يقفز على الدّرج بخفة الأرانب وثقل الفيلة!

إنّه وبلا أدنى شك أسامة ابن العقد الثالث من عمره.. إن أسامة شابٌّ يافعٌ ووسيمٌ ولكن لا أحد يرى شعره البنّي وعيناه السوداوان ذوي الحاجب المقطّب إلّا ويعلم شيئاً عن مزاجه العصبيّ!

ولعلّ أكثر النّاس علماً بحدّته هي شقيقته التي تشاركه سكنه ولقمة عيشه..
ودخل أسامة البيت كالمعتاد بعد أن حطّم الباب بدفعةٍ مدويّةٍ سائلاً بصوته الأجش:
- ريما!.. أين الطّعام؟

ولكن يا لهول ما رأى!.. هذه المرّة لم يرَ المنضدة الفارغة التي اعتاد أن يراها بل رأى منضدةً محطّمةً مرميّةً بين الكتب والأوراق الممزّقة المتناثرة.. ناهيك عن الوسائد والفرش الممزّقة التي كست الأرض بطبقةٍ من الرّيش..

وأمام هذا المنظر الفظيع احمرّ وجه أسامة وأخذ يركض تجاه غرفة أخته يطمئنّ عليها حين فتحت الباب فجأةً فاصطدما ببعضٍ ثمّ

تلاقت عيونهما قبل أن يصرخ أسامة:
- ماذا حدث؟.. ما....؟
- الطّعام!.. لحظات ويجهز ..أؤكد لك!

وانطلقت إلى المطبخ وهي تمسح آثار النّوم عن وجهها وتردّد:
- أتساءل هل سأرى اليوم الذي تتعلّم فيه الصّبر؟!

وفجأةً لمحت الغرفة الفوضويّة فشهقت شهقةً عاليةً وارتدّت إلى الوراء قبل أن يسألها أسامة مستنكراً:
- أنتعرض إلى هجوم وأنت نائمةٌ فوق قدر الطّعام؟!
- نائمةً فوق القدر؟!.. أترى في وجهي البصل والطماطم أم البطاطس المبهّرة؟!.. ألهذه الدّرجة أنت جائع؟!

واقترب الاثنان يرفعان الأنقاض حين تناهى إلى آذانهما صوت مواءٍ شديدٍ.. وعلى الفور التفتت ريما إلى الباب قائلةً:
- ما بك يا ياسمين؟.. مم أنت خائفة؟

ولكن القطّة البيضاء بقيت تموء وتدور عند عتبة الباب بقلقٍ ممّا أثار أعصاب أسامة التي لا تهدأ أصلاً فرمى القطة بأحد الكتب وزجرها وطردها صارخاً بسيّدتها:
- أنا لا أحتمل الكلاب.. إلى متى سترغمينني على العيش مع هذه البهيمة؟.. إلى متى؟

وكالمعتاد سكتت ريما على هذا الجواب وابتسمت بزهوٍّ وكأنّها تقول: "إلى الأبد!"!

وبغيظٍ أخذ أسامة يبحث بين الرّكام عن شيءٍ محدّدٍ؛ شيءٍ مهمٍ بالنّسبة إليه بل أهمّ من حياته!.. وفجأةً صرخ صراخ الميّت وأخذ يلطم وجهه قائلاً:
- كما توقّعت!.. كما توقّعت!

وتدريجيّاً تحوّل الغضب إلى دموعٍ!.. وانهار أسامة يبكي على الأرض بيأس.. بينما بعفويةٍ قالت أخته:
- أهو اكتشافك؟!.. يا للأسف!.. كيف ستسجّل اسمك في سجلّات غينيس بدونه؟

وتنهّدت ريما بألمٍ ثمّ أخذت تسترق النّظر إلى قطّتها الخائفة بحنانٍ ثم شدّتها رائحةٌ كريهةٌ إلى المطبخ فسارعت لتطفئ النّار تحت الطّعام كي لا يتفحّم بعد إذ احترق!

وفي هذه اللّحظات خرج أسامة من البيت ساهماً وكانت خطواته الحزينة ناعمةً لدرجة أنّ أحد الجيران فوجئ عندما رآه في أسفل البناء فقال له ساخراً:
- أسامة؟!.. لا بدّ أن أمراً جللاً قد حدث لك!.. كيف استطعت النّزول بدون أن تحطّم الدّرج؟!

ولكنّ الجار تأكّد من صحّة كلامه عندما لم يسمعه أسامة أصلاً وخرج من البناء ووقف على الرّصيف كأنّه ينتظر المجهول حين توقّفت أمامه سيّارة أجرة وقال له صاحبها مازحاً:
- إلى أين تريد؟

تردّد أسامة في البداية ولكنّه ركب في النّهاية وسارت السيارة القديمة تحطّمها الأرض بإسفلتها القاسي.. ومرّت دقيقةٌ قبل أن يقول السّائق:
- لا بدّ أن أمراً عظيماً يشغلك حتّى أنّك لم تلاحظ حتّى الآن في سيارة من تركب!

فتنبّه أسامة على صدى تلك الكلمات فقال بدون أن يلتفت:
- اعذرني يا فريد.. لقد كنت شارداً..

وانتظر فريد مزيداً من الأعذار المعتادة لكنّه لم يسمع شيئاً.. أيعقل أنّ أسامة عاد إلى شروده بتلك السّرعة؟!.. نعم.. إنّها الحقيقة! فأدرك فريد أنّ ابن عمّته في حالٍ سيّئةٍ فوجم هو الآخر.. ومرّت دقائق سريعةٌ قبل أن تخرج السّيارة عن حدود المدينة.. وتسابقت الرّمال إلى عيني فريد عبر نوافذ السّيّارة فأغلق زجاج نافذته فوراً ولكنّ أسامة كان -على ما يبدو- يستمتع بدموع عينيه الحمراوين!

وانطلقت السّيارة القديمة تتحدّى الصّعاب وتزدرد الرّمال حتّى حلّ اللّيل فوقف فريد قائلاً لصاحبه:
- لن آمن أن أبتعد أكثر من هذا.. اللّصوص وافرو الحيل!
- صحيح.. هاهو أجرك!
- أجر؟!.. قلت لك ألف مرّةٍ أنّك ابن عمتي وأنا لن آخذ منك أجراً!
- آه.. نعم.. عفواً.. أقصد شكراً..

ونزل أسامة دافعاً الباب بقوّةٍ كالمعتاد فاهتزّت السّيّارة القديمة

بسائقها الذي أخذ برأسه من شدّة خوفه على السّيّارة!

ومرّت لحظاتٌ قبل أن تغادر السّيارة العجوز المكان محدثةً ضجيجاً رهيباً ولكن سرعان ما عاد الهدوء إلى هذه الصّحراء المزدانة بالنّجوم ولم يعد يكدّر هدوءها إلّا صوت خطواتٍ كخطوات الدّب وهي خطوات أسامة الذي كان يمشي على الحجارة وهو يحطّمها برجليه غيظاً..

وطال انتظار ريما لأخيها وطال حتّى ضجرت وفقدت صبرها وفوراً أخذت تتّصل بأقاربها وكلّ من تعرف.. وهكذا في ليلةٍ واحدةٍ أصبح من يقول: " أتعلم؟!.. لقد اختفى أسامة!" سخيفاً لا يستحقّ أن يلقي له أحدٌ السّمع فهذا الخبر أصبح قديماً ومعروفاً للجميع!

(٢)

كان الهواء عليلاً منعشاً رغم الحرارة التي تحيط بالمنطقة.. كان بهاء مسترخياً على الكرسيّ المجاور لكرسيّ السّائق وقد كان السّائق فريد ماهراً حاذقاً في التّعامل مع أوضاع سيارته العجوز على مطبّات الصّحراء الوعرة!

وبعد فترةٍ وصلت السيّارة المدينة وركبت طرقاتها الممهدة ومع ذلك كانت السيّارة العجوز تعاني وتعاني وتتحجّج بأن الإسفلت قاسٍ أيضاً!

وماهي إلّا دقائق حتّى أخذ بهاء يطرق الباب ففتحت له فتاةٌ لطيفةٌ في العشرينات من عمرها .. بالطّبع لم تكن تلك إلّا ريما؛ أخت أسامة وابنة عمّ بهاء وأخته بالرّضاعة..

ودخل بهاء ومن فور دخوله أخذ يدقّق النّظر بكلّ ما حوله.. فأجابته ريما ساخرةً:

- عمّ تبحث؟.. لقد نظّفت المكان أربعة مرّاتٍ منذ أن اختفى أسامة.. فاختفاءه هو أنسب فرصةٍ للتّنظيف كما تعلم!

- أتدرين بمن بدأت أشكّ؟!.. إنه أنت!.. لا بدّ أنّك أحد المختطفين أو المتآمرين وذلك لإبعاد أسامة عن البيت وبالتّالي تنظيفه والتّأخر في الطّعام كما يحلو لك!

- بهاء!.. كفّ عن هذا المزاح الثّقيل.. ما تزال سمجاً كما عرفتك!

في تلك اللّحظة قفزت ياسمين إلى يديّ بهاء الذي أخذ يلاعبها

بلطفٍ شديدٍ فأردفت ريما:
- أتدري؟!.. إنّك لطيفٌ جدّاً.. ليتك تحلّ محلّ أسامة كأخٍ لي في البيت!

فنظر إليها بهاء نظرة سخريةٍ ثمّ قال:
- إنك لا تختلفين عن الأطفال في شيءٍ!.. ألم تقولي أنّي سمجٌ منذ قليل؟!.. على كلٍّ كلامك صار دليلاً آخر ضدّك!

وتبادل الاثنان نظرةً قبل أن يشعر بهاء بشيءٍ رطبٍ ولزجٍ على يده.. وبلا وعيٍ نفض يده وقد انتفض هو واقفاً وهو يصرخ:
- ما هذا؟!.. هل بالت قطّتك على يدي؟!

فكادت ريما تختنق من الضّحك وهي تجيب:
- يا لك من حنونةٍ يا ياسمين!.. دافعتي عنّي على الفور!

فاحمرّ وجه بهاء غضباً وأسرع إلى الحمّام ليغسل يده ولكن ما إن سال الماء على يده حتّى سقطت منها قطعة ورقٍ مبلّلةٍ على البالوعة وكأنّها كانت عالقةً في فم القطّة وبصقتها على يده فرفعها وقرأ عليها كتابةً بخطّ اليد:
- ديموزي: شيطان

وفي تلك اللّحظة دخلت ريما ومعها المنشفة وقد تورّد وجهها من الضّحك فأجابها بهاء مدافعاً عن نفسه:
- لا! داعي لهذا للضحك.. ظهر أنها قد بصقت على يدي فقط ولم تبُل..
- حقاً؟!.. المهم أنّها دافعت عنّي!.. أنا أدافع عنها عادةً وهي دافعت

عني اليوم.. أنا لياسمين وياسمين لي!

فرمقها بها بنظرةّ وقال:
- ألا تذكرين شيئاً غريباً عن يوم اختفاء أسامة؟
- بلى.. طبعاً!
وهمّت ريما بالكلام ثم خمدت تدريجيّاً وقالت:
- لا!

فضرب بهاء وجهه بخيبةٍ معلّقاً:
- ولم قلت بلى مادام لا؟!
فسكتت ريما محرجةً بينما أدار بهاء نظره بسرعةٍ إلى ثيابٍ ملقاةٍ على الأرض وقال:
- ما هذا؟.. أهو...؟

وقبل أن يتمّ كلامه كانت ريما ترمي الثّياب في الغسّالة قائلةً:
- لا.. لا.. لقد نسيت أن أغسله!
لكنّ بهاء انتبه إلى الرّمل والحصى التي كانت عالقةً على الثّياب ولكن ريما شغّلت الغسّالة التي أخذت تذهب بالرّمال بعيداً في الماء وعلّقت ريما مفسّرة:
- كان أسامة يساعد عمّه على حفر بئرٍ في مزرعته.. ولغبائي تركته هنا!

وأخذت ريما تضحك على نفسها بينما رآها بهاء تصطنع الضّحك وقالت له:
- آه.. صحيح.. كنت أريد أن أجعلك تتذوّق بعضاً من الكعك الذي

صنعته البارحة.. تفضل!

وذهبا إلى المطبخ وأخرجت ريما صحناً من الكعك الشّهي المغطّى بطبقةٍ من الشوكولا.. وأخذ بهاء قطعةً وعندما سألته ريما عن طعمها ارتبك ولم يعرف الجواب إذ أنّه لم يستشعر طعمها بسبب شرود أفكاره فنظر إلى ريما بجديّةٍ مفاجئةٍ لكنه استعاد وجهه المرح بسرعةٍ وأجابها:
- طيّبٌ جدّاً.. سلمت يداك!
- إذاً تفضّل واحدةً أخرى..

وأخذ بهاء يأكل بينما كانت ريما تصرّ بعض القطع وأعطته إيّاها قائلةً:
- هذه لابن خالي فريد..
- وما أدراك أنّ فريد هنا؟
- وهل تستطيع سيّارته أن تخفي سرّاً؟!.. إنّها مثل أسامة عندما تأتي يعلم الحيّ كلّه بذلك!

وضحكت ريما بينما تناول بهاء صرّة الكعك شاكراً وأنهى زيارته باختصارٍ وخرج من البيت مهموماً على ما يبدو.. ويا سرعان ما وجد سيّارة فريد تنتظره فركبها ملقياً السّلام فردّ عليه فريد السّلام قائلاً:
- ما الأخبار؟
- حصلت على معلوماتٍ أكثر من المتوقع!
- ممتازا!.. إذاً يمكنك الآن أن تدلّنا على الوجهة الدّقيقة التي توجّهها أسامة بعد ان وصلت به إلى تلك النّقطة من الصّحراء..
- لا.. ليس إلى تلك الدّرجة!

- ولكن ما فائدة المعلومات التّي حصلت عليها إذا لم تكن تعرف حتّى هذا؟.. على كلٍّ، اطّلعت على خريطةٍ للمنطقة قبل قليلٍ فوجدت أنّ في تلك المنطقة ثلاثة مفاوز حجريّةٍ في الجبل وكلّ ما علينا أن نحدّد أحدهم لندخله!

- حجريّة؟!.. ومن قال أنّ المكان حجري؟!.. كانت أحد معلوماتي أنّي رأيت ثياب أسامة وقد تعلّق بها رملٌ وحصىً صغيرة.. وذلك على الرّغم أنّ أخته ادّعت أنّه شارك في حفر بئرٍ لعمّه إلّا أنّها نسيت أنّ عمها الوحيد هو أبي وأنّنا لم نحفر بئراً منذ فترةٍ قريبةٍ!

- فهمت.. لم لا تصف لي تلك الثّياب لعلّها ذاتها الثّياب التي كان يرتديها حين أوصلته آخر مرّة..

- كان بنطالاً من الجينز وقميصاً أزرق خفيفاً..

- ربّما.. أو لا.. أو نعم.. في الواقع.. أظنّني قد نسيت!

فضرب بهاء وجهه غيظاً وقال:

- إذاً لم سألتني؟!

- حاولت أن أكون مفيداً!

وأشاح بهاء وجهه يفكّر بينما كانت السّيارة تنطلق إلى المجهول!

(٣)

كان شعوراً مروّعاً ذاك الذي شعره بهاء حين كان ينزلق في ذاك الوادي الصّخري الرّهيب وما إن استقرّ حتّى أخذ ينادي فريد:
- فريدا!.. نحن في الطّريق الصِحيح!.. الأرض هنا رمليّةٌ وفيها حصىً صغيرة!

وعلى الرّغم من أنّ فريد كان واقفاً على حافّة المنحدر إلّا أنّ بهاء لم يستطع التّواصل معه لبعد المسافة وكأنّه اختفى!

وبعد دقائق انتهت محاولات بهاء اليائسة في التّواصل مع فريد فالتفت إلى ما حوله وأخذ يمشي حين وجد نفسه يسقط على الأرض على صوت كاحله وهو يصرخ من الألم!

الحقيقة أن بهاء لشدّة انفعاله لم ينتبه لالتواء كاحله عندما انزلق.. أمّا الآن فقد حاول إسعافه وربطه إلّا أنّ المفاجأة كانت تنتظره إذ أنّ أفعىً صغيرةً كانت قد التفّت بكاحله الملوي التفافاً شديداً وحاول بهاء نزعها إلّا أنّه رفع رأسه ليرى العشرات من أمثالها بل هي أصغرهم وحفيفهم يصمّ الآذان ويخلع أنياط القلوب فقفز بهاء من الرّعب وأخذ يركض عارجاً حتّى تعثّر بأحد الصّخور وخرّ على وجهه الأصفر ولكنه لم ينزف وذلك ليس لأنّه لم يجرح بل لأنّ عروق بهاء الخائف كانت فارغةً من الدّم من شدّة خوفه!

ومضت لحظاتٌ رهيبةٌ والأفاعي تتحلّق حول بهاءٍ في شكلٍ غريبّ

وكأنّها مدرّبةٌ على هذا الشيء.. لقد كانت تدور في دائرةٍ تصغر شيئاً فشيئاً وما هي إلّا دقائق حتّى صارت الدّائرة في حجم بهاء واقفاً.. ووقف الأخير حيران وهو يشعر أنّه هالكٌ لا محالة ولم يجد نفسه إلّا ضارعاً إلى الله في توسّلٍ شديدٍ..

ومرّت دقيقةٌ قبل أن يرى بهاء ظلّ رجلٍ يقترب من المكان فتعلّقت باصرتا بهاء به وقد علّق به الأمل وهو يحاول أن يشحذ صوته مستنجداً إلّا أن شبح ذلك الرّجل رفع قبعته وأعادها مؤدّياً التّحية وانصرف وما هي إلّا ثوانٍ معدودةٍ حتّى انصرفت الأفاعي أيضاً وكأنّها أدّت المطلوب!

وسقط بهاء على الأرض فزعاً وكأنّ الموت أمسك بخناقه وفي اللّحظة الأخيرة تركه يتنفّس!.. وبعد أن هدأ وعاد إليه وعيه نظر إلى كاحله الملوي بأسىً حين انتبه أن الأفعى الصّغيرة ما تزال ملتفّةً حول ساقه..

ورغم المحاولات التي بذلها بهاء لإبعادها إلّا أن أحدها لم يفلح وبقيت تلك الأفعى متشبّثةً برجله كفتاةٍ صغيرةٍ متشبّثةٍ بأمّها.. ولم يجد بهاء حلّاً إلّا متابعة السّير متناسياً خطر السّم الذي يلف ساقه!

لم يكن السّير بالعرج أمراً سهلاً فقد بقي بهاء ربع ساعةٍ يقطع المسافة التّي يقطعها عادةً في خمس دقائق!.. ووصل أخيراً الطّرف الآخر من الوادي الصّخري الصّغير.. وعلى الرّغم من أنّ جميع أطراف الوادي مرتفعةٌ بمنحدرٍ صعبٍ إلّا أنّ هناك كوخاً قابعاً في أحد الزوايا.. فطرق بهاء الباب مستنجداً ففتحه رجلٌ عجوزٌ نحيلٌ ليس

في جسده خيرٌ واستمع إلى كلام بهاء وشكواه حتّى آخر كلمةٍ ثمّ أشار إليه ببرودٍ وفظاظةٍ أن ادخل!

وهمّ بهاء بالدّخول ولكنّه وجد عتبة الباب عاليةً جدّاً فرفع رجله السّليمة أولّاً ثمّ الملويّة وعندما رأى العجوز الأفعى العالقة بها بدا على وجهه خوفٌ شديد فدفع بهاء بقوّةٍ أسقطته أرضاً وأغلق العجوز الباب الهرم بقوّةٍ شديدةٍ وتفاجأ بهاء إذ لم يكن من المتوقع أن تكون لعجوزٍ كلّ هذه القوّة!

ولكن حدث ما لم يكن بحسبان ذلك الشّيخ إذ انكسر الباب وسقط من عزم الضّربة وبات وجهاً لوجهٍ مع بهاء.. وفي النّهاية لم يجد العجوز حلّاً سوى الصّراخ لإبعاد بهاء عنه وأخذ الأخير يبحث مبتعداً عندما انتبه لوجود كهفٍ تحت إحدى المنحدرات الوعرة فزحف إليه بصعوبةٍ ثمّ اعتدل في جلسته ليتفحّص المكان .. كان كهفاً طبيعياً على ما يبدو فالصّواعد والنّوازل محفورةٌ في أرضه وسقفه بشكلٍ مدهشٍ والمياه التي تقطر تحدث صدىً شديداً!

وأخيراً اتّكأ على أحد الصّخور ونهض ومشى خطواتٍ قبل أن يتعثّر ويخرّ على الأرض ثانيةً ولكنّه عندما نظر وجد أنّه لم يتعثّر بصخرةٍ هذه المرّة بل تعثّر بقدم رجلٍ جالسٍ يرتدي ثوباً جلديّاً بسيطاً بالكاد يستر جسده كما ينبغي.. فاعتدل بهاء في جلسته بينما كان وجهه يرسم استياءً شديداً فقال له الرّجل شيئاً لم يفهمه ولكن بدت عيناه وكأنّه يقول:
- تدخل كهفي وتتذمّر من عثرةٍ تعثّرتها بقدمي؟!

فانتبه بهاء إلى ما يرسمه على وجهه فعدّل الرّسمة واصطنع ابتسامةً ومرحاً وقال:
- أعتذر يا سيّدي!.. ولكنّ وقوعي كان مؤلماً.. شكراً جزيلاً لإنقاذي!.. ولكم يسعدني أنّني استطعت أن أشكرك!

ومدّ بهاء يده مصافحاً الغريب الذي صافحه بترحابٍ ودعاه إلى بيته كما بدا من إشاراته وبالطّبع وافق بهاء مسروراً فنهض الغريب وحاول أن يساعد بهاء على الوقوف حين لاحظ الأفعى على ساقه فرماه على الأرض مذعوراً وهمّ بالهروب ولكنّ بهاء أمسك ساق الرّجل قائلاً:
- أرجوك لا تتركني!.. ما قصّة هذه الأفعى؟.. لا أفهم سبب تعلّقها بقدمي.. حاولت إبعادها مرّاتٍ بلا فائدة!

ووقف الغريب لحظةً يتأمّل وجه بهاء ثمّ أخرج سكّينه ورفعها ليهوي بها على ساق بهاء الذي سحب ساقه مذعوراً في اللّحظة الأخيرة فهوت السّكين على الأرض وانكسرت من عزم قوة صاحبها!

ونظر الاثنان إلى بعضهما قبل أن يقول الغريب حازماً كلاماً كثيراً لم يفهم منه بهاء إلّا كلمةً واحدة هي: "ديموزي" وتذكر بهاء تلك القصاصة التي ذكر فيها أن ديموزي تعني "شيطان" فأجابه مذعوراً:
- ش.. شيطان؟!.. أقسم لك أنّني لست شيطاناً.. لي أبٌ وأمٌ من لحمٍ ودمٍ مثل أيّ إنسان!.. وهاك بطاقة هويتي لتصدّقني!

وأخرج بهاء بطاقته الشّخصيّة يريها للغريب الذي أخذ يقلّبها بحذرٍ فأجابه بهاء باسماً:

- إنّها البطاقة التي تحمل معلوماتٍ عن شخصيّتي!

فرماها الغريب خائفاً وهو يقول بصوتٍ يرتجف كلاماً غير مفهومٍ ونظر إلى بهاء ثمّ أخذ يركض فزعاً وهو يصرخ:
- ديموزي.. ديموزي!

فتناول بهاء بطاقته عن الأرض وأخذ ينظر إليها باستغراب.. ترى ما الذي جعلها غريبةً في نظره؟!.. إنّها مجرّد بطاقة!.. فوضعها في جيبه رافعاً كتفين ودخل إلى أعماق الكهف مستكشفاً..

كان الكهف مظلماً في البداية ولكن عندما تقدّم أكثر سرعان ما وجد فتحةً في الصّخر يتسرّب منها ضوءٌ هادئ يضيء حجرةً صغيرةً مليئةً برسوماتٍ بدائيّةٍ غريبة الأطوار كأنّما كان هذا الكهف لأحد القبائل القديمة..

واستطاع أن يرى في زوايا الغرفة حبالاً غريبةً فاقترب وأمسك إحداها وسرعان ما صرخ وضرب وجهه قائلاً:
- لا!.. هذه ليست حبالاً.. إنّها أفاعٍ قديمةٌ محنّطةٌ!
ونظر إلى أفعى كانت تزحف على الجدار وقال لها ساخراً:
- انظري هذه جدّتك!

وكأنّما فهمت الأفعى السّخرية فانقضّت عليه مبرزةً أسنانها فارتدّ إلى الوراء وسقط وقد حاصرته الأفعى ولم يجد حلّاً سريعاً إلّا أنّه أخرج ولّاعته وولّع النّار في وجهها فتلوّت مقاومةً ولكنّ بهاء هاجمها بها ودخلت حديدة الولّاعة مع نارها في عينها وسرعان ما سالت

عين الأفعى التي فحّت بشدّةٍ وهربت كسيرةً بعينٍ واحدة فصرخ بهاء بحبورٍ:
- الحمد للّه!

ولكنه سمع صرخةً أخرى عند الباب ظنّها في البداية صدى صوته ولكنّه عندما التفت رأى الغريب يرجف من الخوف ويركض إلى الخارج بسرعة.. فنظر بهاء إلى ولّاعته ونفض كتفيه قائلاً:
- يبدو أنّني أنا الآخر التقيت بجدّي!

ونهض يستطلع محتويات المكان فوجد ثياباً قديمةً و.. وقبّعةً قديمةً مثل تلك الغريبة التي يضعها الرّجل الذي أنقذه في البداية!.. فارتداها ولكنّه أصيب بالدّوار من رؤية أذناب الأفاعي التي كانت متدليّةً منها وهي ترقص -كلّما تحرّك- جيئةً وذهاباً أمام عينيه!.. وغلبه نعاسٌ من شدّة الدّوار فاستلقى قليلاً ولكنّه غفى على الفور!

عندما عاد إليه شعوره ثانيةً عاد على إحساسٍ بحرارةٍ شديدةٍ من تحته ففتح عينيه ليرى أذناب الأفاعي ترقص أمام عينيه فنفض رأسه ولكنّها استمرّت في الرّقص أكثر ..
فأصيب بالذّعر في البداية ولكنّه استعاد ذاكرته وحاول أن يخلع القبعة بيديه.. ولكن كان هناك مشكلةٌ بسيطةٌ وهي أنّ يده اليمنى لم تكن تستجيب له.. ولا حتّى اليسرى.. ولا هذه الرّجل ولا تلك!..ماذا حدث؟!

ونظر إلى الأسفل فرأى ألسنة النّار تتقافز من تحته فصرخ وحاول أن يهرب بلا فائدة وفهم الحقيقة في النّهاية عندما أدرك أن أصوات

الضّجيج التي حوله كانت أصوات أناسٍ يصرخون بكلمتين؛ الأولى مبهمة.. بينما الأخرى: "ديموزي".. ومن الواقع أدرك أنّهم لا بدّ يصرخون:
- أحرقوا الشّيطان!

فأخذ المسكين يشاركهم بالصّراخ وقد أضيف عرق القلق إلى عرق الحرّ وهو يواجه مصيره معلّقاً على خشبة الحرق في ساحة القرية.. عندما..فوووم !

وخيّم الصّمت قبل أن تنطلق رصاصةٌ أخرى لتخرق الصّمت وتستقرّ في حصان أحد الرجال وما إن سقط الحصان حتّى سقط حصن القريّة فقد هربوا جميعاً إلى أكواخهم وخلت السّاحة من إنسيٍّ إلّا من ذلك المسكين الذي بدأت رجلاه تحترقان!

وعلى الفور ركض فريد وأطفأ النار وأنزل بهاء المسكين الذي كان لا يزال يشعر بالدّوار ليس من تلك الأذيال التي تتراقص أمامه وإنما من تلك الحرارة الشديدة التي كاد يغلي منها دماغه!

وما إن سقط على الأرض حتى وقعت القبعة عن رأسه فاحتضنه فريد وهو يقول له:
- هل أنت بخيرٍ يا بهاء؟.. هل أنت بخير؟
- لا بأس.. بالتّأكيد أفضل مما كنت سأكون عليه لو لم تنزلني!.. ولكن أين نحن؟
- في قريةٍ غريبة الأطوار في داخل ذاك الوادي الذي كان في الشّعب الذي دخلنا منه.. أتذكر؟

- أجل أذكر.. إنّهم يظنّوننا شياطين!
- وما العمل؟!
- علينا أن نثبت لهم العكس!
- وكيف؟!
- لنفعل ما لا تفعله الشّياطين!
- وهل سبق والتقيت شيطاناً حتّى أخبرك بما يفعل وما لا يفعل؟!
فنهض بهاء يمسك رأسه وهو لا يزال يسعل بشدّةٍ بسبب الدّخان الذي استنشقه ونظر حوله إلى تلك الأكواخ المغطّاة بالجلود وقال:
- نسأل اللّه العون والقوّة..

وخرّ بهاء على الأرض ثانيةً من ألم قدميه عندما لاحظا فجأةً أنّ أحد أفراد القبيلة خرج من أحد الأكواخ متّجهاً إليهما وهو يرتدي ثياباً غريبة الأطوار بألوانٍ شديدة السّطوع وذاك القناع المضحك على وجهه.. وراودت الضّحكة بهاء ولو لم يكن يتألّم لانفجر ضاحكاً على هذا المهرج!

واقترب وصار يدور حولهما وهو يرقص ويقول مختلف الكلمات الغريبة بجرأةٍ غير بالغة؛ إذ كانت ساقيه ترجفان بين الخطوة والأخرى!

فقال فريد:
- ما هذه الشّعاوذ؟!.. لا بدّ أنّه ساحر..
- اقرأ المعوّذات!
- سأقرأها إضافةً إلى...

وأطلق فريد رصاصةً إلى السّماء فقفز السّاحر من الخوف وجثا على ركبتيه يتوسّل ويسترحم فصرخ به بهاء:
- فريدا!.. نحن نريد أن نسالمهم لا أن نزيد خوفهم!

وتحامل بهاء على نفسه واقترب من الرّجل الأصفر وصار يربّت عليه ليشعره بالأمان وفجأةً تذكّر فأخرج حلوى الشوكولا التي أعطته إيّاها ريما وقال لفريد:
- اعذرني يا فريد.. كانت هذه لك.. كانت!
- على الأقل لا تخبرني!

ولحس فريد شفتيه طامعاً بالكعكات يائساً من الحصول عليها وهو يشاهد بهاء يعطيها لذاك الغريب ويفهمه أنّها طعام بينما ارتعدت فرائصه لرؤيتها ولكن ظنّاً منه أنّه مجبرٌ على أكلها فأخذها ويداه ترجفان وقضم قضمةً صغيرةً وأشاح وجهه ينتظر مفعولها الشّيطاني كما يظنّ ولكن..
لم يحدث شيء.. وتناول أخرى ولكن لم يحدث شيئٌ أيضاً بل كأنّها طعامٌ عاديّ.. وبقضمةٍ ثالثةٍ لاحظ أنّها طعامٌ طيب.. وفي الرّابعة ابتسم!

وعند هذه النّتيجة حاول بهاء أن يشرح للرّجل أنّ حروق رجليه تؤلمه كأيّ إنسان!.. فأراه قدميه المتأزّمتين من خلال حذاءه المحترق وكم يشعر بألمٍ شديدٍ وأخذ يفهمه أنّه بحاجةٍ لعلاجٍ سريعٍ عندما انتبه أنّ.. أنّ الأفعى الصّغيرة كانت تحتضر لافظةً أنفاسها الأخيرة وسرعان ما تحوّلت الأفعى إلى حبلٍ لا روح فيه.. فاستغلّ بهاء ذلك ورماها أمام الرّجل ليريه أنّها تخلّص من هذه الأفعى

المشؤومة!

وسرعان ما فهم الرّجل الرّسالة فأسرع ليوصلها إلى المرسل إليه وهو يتلمّض الشوكولا ويده لا تزال تحمل قطعةً منها وما إن غاب عن ناظري بهاء وفريد حتّى قال الأخير:
- مسكينةٌ تلك الشوكولا.. وقعت في يد من لا يقدّر مقامها..
- على العكس.. كانت أثمن من وزنها ذهباً.. كانت أطيب رسالةٍ على الإطلاق!
- في الواقع أنت المسكين.. لا بدّ أنّ حروقك هذه خطيرةٌ من الدّرجة الثّانية أو الثالثة.. أرجو أن يشفيك اللّه وأن لا تفقد رجليك يا صديقي..

فسيطر الهمّ والغمّ على بهاء الذي تمدّد على الأرض وهو يتلوّى من آلام رجليه وسرعان ما جاء عجوزٌ يحمل سلّةً مع ذلك السّاحر فوقفا قليلاً يشحذان شجاعتهما ثمّ قدّم السّاحر لهما صحناً فيه بعض الطّعام الغريب فتردّد فريد بينما فهم بهاء الأمر فتناول قطعةً وأكلها مظهراً أنّها أعجبته وكذا فعل فريد عندما رآه وعلى الفور ابتسم رجلا القبيلة وتبادلا نظرةً كأنّهما يقولان:
- الآن تأكّدنا أنّهما بشرين مثلنا؛ يأكلان ممّا نأكل ويتألّمان كما نتألم!
ثمّ تقدّم الآخر الذي ظهر أنّه طبيبٌ وأخذ يضع المعاجين الخضراء على قدميّ بهاء ويداه ترجفان بينما أخذ بهاء بالصّراخ من ألمه الشّديد وحرقة الحرق وأخذه البكاء الإجباريّ حتّى فقد المسكين وعيه أخيراً!

عندما فتح بهاء عينيه وجد نفسه أفضل حالاً وقد خفّت آلم رجليه

وهو يحدّق بسقف أحد أكواخ القرية البسيطة فتحامل على نفسه وجلس يتلفّت فرأى صديقه فريد يصلّي بجواره وعندما انتهى قال له:

- وأخيراً استيقظت.. مضى عليك نائماً منذ البارحة!

- البارحة.. وما هو الوقت الآن؟

- إنّه الظّهر..

- الظّهر؟!.. حتّى أنّي لم أسمع الأذان!

- كفاك سذاجة!.. كيف تسمع الأذان ونحن في قلب الصّحراء بعيدين كيلومترات عن مدينتنا؟!

- وأين نحن؟

- في القرية.. كنّا نبحث عن أسامة.. أنسيت؟!

فضرب بهاء وجهه صائحاً:

- صحيح!.. وأنا أتساءل ما هذا السّقف البدائي..

- نحن في بيت الطّبيب..

- طبيبٌ وبيته هكذا؟!.. هؤلاء النّاس من عصر جدّي..

- أو جدّ جدّ جدّ جدّ جدّك..

- المساكين.. إنّهم محجوزون عن الحضارة في هذا الوادي الغريب..

- وقد يكون مجيئنا خيراً لهم لنخرجهم من غفلتهم ويغدو عقلاء كبقيّة المسلمين!.. يبدو هذا كالقصص القديمة يا بهاء.. المستكشفان فريد وبهاء اكتشفوا قبيلةً تاريخيّة في قلب الحضارة.. تخيّل هذا عنواناً عريضاً في الصّحف.. سندخل التّاريخ!

- لا.. لا أظنّ.. لا تبحر في أحلامك كثيراً.. فأسامة قد سبقنا من زمان..

- أسامة.. صحيح.. لكن يبقى مروره من هنا مجرد ظن..

- لا.. ليس ظنّاً!.. أنا متأكّد.. وجدت في بيته ورقةً عليها أنّ "ديموزي" تعني "شيطان" وهذا ما كان يردده أفراد القبيلة إن

لاحظت.. لقد كان أسامة هنا وهو على ما يبدو يعرف شيئاً من لغتهم..

وسيطرت لحظات الخمود على فريد ثمّ شحذ نفسه وقال:
- على أيٍّ.. هيّا انهض واغتسل كي لا تفوّت الصّلاة..
- كيف أنهض وهذه الجبائر الخضراء على قدميّ.. ثمّ... آه!.. إنّها تؤلمني!

وتمدّد بهاء وجعاً بينما أجابه فريد:
- حسناً.. لا تنهض.. سأحضر لك الماء..

وتوجّه فريد إلى نبع الماء القريب من القرية والذي ينبع من الجبل وأخذ يجتاز نظرات أهل القرية الوجلين وهم يحدّقون به واجمين.. وعندما وصل النّبع وجد ثلّةً من الشباب جالسين عنده فتجاهلهم وحاول أن يستقي عندما حاصروه حذرين وهم يصوّبون نظراتهم الحادّة إليه.. من الواضح من أعينهم ونبالهم أنّهم لم يكونوا أبداً مرحبّين بهذا الطّفيلي ال...
- ديموزي!

كما كانوا يقولون وهم يتغامزون.. وحار فريد في أمره وقد استشعر خطراً شديداً على حياته ولكنّهم بادروه بضربةٍ وقيّدوه وأخذوه وصعدوا به على منحدرٍ وعرٍ وصعدوا وصعدوا وصعدوا حتّى بلغوا منحدراً شاهقاً فتركوه عليه ونزلوا قليلاً واختبؤوا في كهفٍ هناك يراقبونه..
- يا ربي!.. ما الذي يريده هؤلاء؟.. ظننتهم سيعدمونني ولكن لم

تركوني؟؟

وعلى الفور جاء الجواب عندما سمع زعقةً شديدةً من الأعلى فخانته ركبتاه فوراً وسقط مرتدّاً إلى الوراء حتّى اصطدم بصخرةٍ في الجبل فالتفت ليرى نفسه جنباً لجنبٍ مع زاويةً مدبّبةً من زاوايا الصّخرة!.. فضاقت حدقتاه وتمتمت شفتاه:
- الحمد للّه!.. الحمد لك يا ربي.. لو اختلفت زاوية وقوعي قليلاً لكنت الآن....

ورمى فريد رأسه من هول ما تخيّله بينما زعقةٌ أخرى أعادته إلى الواقع.. فرفع رأسه ليرى طيرين جارحين ضخمين يحومان فوقه وبصراحة يهمّان بالانقضاض عليه!

وعلى الفور اصطكّت أسنان فريد المسكين وأيقن بالهلاك لولا أنّ اللّه دفعه إلى فكرة النّجاة!
فنهض برجليه الرّاجفتين وأخذ يحكّ وثاقه بزاوية الصّخرة المدبّبة حتّى انقطع فصرخ فرحاً بلا وعيٍ وأخرج مسدسه وصوّب بيده الرّاجفة إلى الطّير الذي سارع للانقضاض عليه.. وعلى الرّغم من أنّ هذا مفزعٌ جدّاً إلّا أنّه كان خيراً فالطّير الذي كان ينقض على المسدس ألغى فرصة الخطأ الكبيرة التي كانت تلوح بسبب رجوف يد فريد الشديد!

وارتمى الطّير على صدى الرّصاصة يهوي إلى الوادي بينما أذاع الطّير الآخر زعقة الهجوم وانقضّ على فريد بسرعةٍ أكبر.. وعلى الفور اخترقت رصاصةٌ أخرى جسده ليستقرّ مع رفيقه في ذاك

الوادي السّحيق على صوت فريد وهو يصرخ فرحاً:
- اللّه أكبر!.. النّصر على المعتدي!

وما كادت تتمّ فرحته حتّى خرج الشبّان من كهفهم واتّجهوا إليه ووجوههم تشعّ حبوراً فنزلوا به الجبل عند الغروب وحملوه على الأكتاف إلى القرية مهلّلين..
وعلى الفور اجتمعت القرية وأعدّوا ناراً كبيرةً شووا عليها الطّيرين الجارحين بعد أن التقطوهما وقامت حفلة شواءٍ كبيرةً ووضعوا فريد على كرسيٍّ كبيرٍ مزركشٍ وأخذوا يحومون حوله وحول النّار راقصين ومردّدين أناشيد مبهمةٍ..

وبعد عدّة طقوسٍ غريبةٍ ومضحكةٍ تقدّموا إلى فريد المشدوه وجرّدوه من ثيابه المدنيّة وألبسوه ثياباً ضخمةً من جلود الأفاعي الفاخرة وجاء رجلٌ غريب القناع واللّباس وأخذ يطلو وجهه وصدره بالألوان.. كلّ هذا وفريد مصدومٌ مذعورٌ في داخله ولكنّه لا يحرّك ساكناً...!

(٤)

- هذا يكفي يا بهاء.. يكفي.. كفاك ضحكاً!
- أسكت؟!

وانفجر بهاء ضاحكاً ثانيةً وحاول أن يقول من بين ضحكه:
- كيف أسكت وأنا أراك بهذا الزيّ الغريب والقنّاع الملوّن السّخيف.. وهذا الريش على رأسك.. تبدو مثل زعماء الهنود الحمر!

وأجاب فريد بصوته المختنق من الغضب:
- أنا من يجب أن يضحك.. على الأقل أنا الزّعيم هنا وأنت تحت رحمتي!

فسكت بهاء عن الضّحك باسماً يمسح دموع الضّحك ثمّ قال:
- ليتك تحسن أن تأمر جنودك قبل أن تهدّدني!
- سأشير إليهم على رقبتك هكذا.. وسترى النّتيجة!
- أو لن أراها!.. على أيّة حالٍ أنا الذي عليه أن يغضب.. انتظرتك من أجل الماء وانتظرتك بلا فائدة حتّى اضطررت في النّهاية إلى التّيمم قبل أن تفوتني الظّهر.. والعصر.. والمغرب والعشاء والفجر والآن الظّهر.. أين كنت يا رجل؟
- كنت أحضر جنازتي.. أقصد جنازة طيرين جارحين تغدّيت بهما قبل أن يتعشّيا بي..
- قتلتهما بالمسدس طبعاً..
- طبعاً بالمسدس.. هل تظنّني قتلتهم بأسناني؟!
- يا لهذا المسدس البطل!.. بارك الله فيه.. على فكرة، كم رصاصةً

بقي معك؟

- للأسف واحدة!

- واحدة!.. يا اللّه، ماذا سنفعل الآن؟.. وثقوا بك عندما راحت أسطورتك أدراج الرّياح!

- ما بك؟!.. مسدسك لا زال كاملاً!

- مسدسي.. الواقع أنّ مسدسي ليس معي.. احتمال أنّني نسيته في البيت أو أنّه وقع منّي عندما سقطتّ أو أغمي عليّ..

فضرب فريد وجهه الملوّن وأخذ يتلوّى غيظاً ويقول:

- يا ربي!.. يذهب إلى مغامرةٍ وينسى مسدسه في البيت!.. أين تصرف هذه السّذاجة؟!.. أين؟!.. أين؟!

فأجابه صديقه بمكرٍ:

- ولكنّني أحمل مسدساً أقوى وأفضل.. انظر!

فرفع فريد يديه ونظر ولكن... كليك!.. فانفجر فريد غاضباً وهجم على بهاء وهو يصيح:

- هات الكاميرا أيّها المحتال!.. امسح الصّورة حالاً وإلّا...

- وإلّا ماذا؟

وأخذ فريد وبهاء يتقاتلان..

- هاتها.. أقول لك هاتها!

-ابتعد عن رجلي.. إنّك تؤلمني!

إلى أن تناهى إلى سمعهما صوت صراخٍ وزعيقٍ فهدأ الاثنان ونهض فريد ونظر من النّافذة وعلى الفور أخذ وجهه بالجديّة ثمّ قال:

- بهاء.. تعال.. بسرعة!
- كيف؟!.. لا أستطيع المشي!
- تعال ولو زحفاً!

ومن شدّة فضول بهاء تحامل على نفسه وزحف على ركبتيه بألمٍ حتّى النّافذة وشهق وهو ينظر:
- يا اللّه!.. إنّه أسامة!
- ولكن من هؤلاء؟.. إنّهم كثرٌ ومسلّحون!
- أظنّهم زهاء خمسٍ وعشرين رجلاً عدا القائد وكلّهم يحملون البنادق!
- إنّهم يستغلّون سذاجة أفراد القبيلة وبساطتهم.. ولكن لم أكن أتوقّع أنّ أسامة قد يكون منهم..
- لا.. إنّه بالتّأكيد مجبر.. لا بدّ أنّهم خطفوه ولذلك اختفى..
وفي تلك اللّحظة دخل وجهاء القبيلة ليشكوا إلى زعيمهم الخارق فريد ويسحبوه إلى ميدان الحرب بينما وقف الأخير متأتأً:
- ماذا يريدون منّي؟

فأجاب بهاء:
- أنت الذي عليه أن يجيب.. أنت الي عليه أن يفعل.. أنت الزّعيم!
- ز.. زعيم؟!.. عن أيّ زعيمٍ تتحدث؟!.. أنا مجرد بعوضةٍ تحاول أن تلسع ضفدع!
- ولكنّهم يروّعون أفراد القبيلة الضّعفاء.. يجب أن تدافع عنهم!
- وماذا تفعل رصاصةٌ واحدة أمام كلّ تلك البنادق؟!
- هاته.. سأباغتهم من هنا بينما تلفت انتباههم أنت..

فأعطى فريد المسدّس لبهاء وهو يقول:
- تباغتهم؟!.. يا لها من مباغتةٍ برصاصةٍ واحدة!.. بهاء، هذه رصاصةٌ لا قنبلة!
- هيّا هيّا.. اذهب معهم.. إلى متى سيبقى هؤلاء المساكين ينتظرونك أيّها الشّجاع؟!

فمضى فريد معهم مطأطأ الرّأس راجف الفؤاد بينما أنصت بهاء لقائد العصابة عبر النّافذة وهو يقول لأسامة:
- قل لهم أنّها فرصتهم الأخيرة ليخلو المكان وإلّا فلن أرحمهم.. سأبدأ رشّ المكان خلال ساعةٍ واحدةٍ فقط..
- ولكن.. ساعةٌ لا تكفي..

فانفجر القائد:
- لقد سبق وأنذرتهم قبل يومين.. هيّا.. هيّا.. وإلّا ألحقتك بهم!
وانطلق أسامة يحطّم الأرض بخطواته الثّقيلة غاضباً حتّى اقترب من الزّعيم المزعوم فريد وأخذ يكلّمه بلغة القبيلة فأجابه فريد ببرادة:
- كفاك بلاهة!.. أنا ابن خالك فريد.. ألم تعرفني؟!.. لم أفهم ممّا قلته ولا كلمةً واحدة!

فدهش أسامة وارتدّ إلى الوراء يتأتأ وهو يحدّق بوجه فريد يحاول أن يلتقط ولو ملمحاً واحداً من ملامحه تحت غطاء الألوان السّميك بينما أردف فريد بصوتٍ خفيضٍ:
- أسامة.. إن كنت مجبراً فهذا هو الوقت المناسب لنستغلّ الفرصة ونجد حلّاً لإنقاذ هؤلاء المساكين..

- نعم.. نعم.. ماذا أفعل؟
- سنتظاهر أنّا نجبرك إلى الذّهاب خلف الأكواخ وأنت تهرب عبر...
- عبر النّفق المنحدر.. أنا أعرفه جيّداً!
- حسناً.. أخبر الشّرطة بسرعة!
- ولكن...
- ولكن ماذا؟
- هناك حيّتان تطوّقان رجليّ وإذا خرجت من المنطقة فسيلسعانني.. لقد كدت أتعرّض لهذا المرّة السّابقة عندما حاولت الهرب و...
- طيّب..طيّب.. هل تحمل ولّاعة؟
- ولّاعة؟!.. أتظنّني مدخّن؟!
- لا.. أقصد أن تحملها للضرورة.. المهم أنّك لا تحمل واحدة اذهب إلى بهاء في ذاك الكوخ ليعطيك الولّاعة وتبعد هذه الحيّات عنك فالنّار تقتلها..

فتردّد أسامة في البداية غير مصدّق ثمّ انطلق إلى كوخ الطّبيب يضرب الأرض بقوّةٍ أكثر من عادته ويتظاهر أنّه يقتحم المكان فصدّق ذلك إلى درجة أنّه دخل إلى بهاء صارخاً:
- هات الولّاعة!
- لا يا أسامة!.. التّدخين حرام!

وهدّأ أسامة نبرة صوته ومدّ رجليه قائلاً:
- من قال أنّني سأدخّن؟!.. أريد أن أبعد هذه الحيّتين عنّي.. ما الذي جاء بكما إلى هنا على أيّة حال؟

فأجاب بهاء وهو يشعل بعض القشّ بالولّاعة:

- من أجلك طبعاً!
- من أجلي وتريد أن تحرق رجلي.. لا تنسى أنّ الحيّتين متشبّثةٌ بقدميّ الحيّتين!
- أجلي ورجلي..حيّتين وقدمين حيّتين(أحياء)؟! ؛ أشعر أسامة!.. أشعر الشّاعر فانشعر!
- هذا ليس شعراً بل سجعٌ وطباقٌ أيّها الذّكيّ!..بهاء!.. أبعد هذه النّار عنّي!
- وكيف ستبعدهما إذاً؟
- وما أدراني؟!
- سنضربهما بالسّكين!
- لا.. لا.. ما إن تلتمع السّكين في أعينهما حتّى يبادرا إلى لدغي.. لقد جرّب.........

فقاطعه بهاء وقد قفزت تعابير وجهه من الفرح قائلاً:
- آه!.. انتظرا!

وتناول بهاء قبعة أذناب الحيّات الخاصّة به واقترب من رجليّ أسامة وأخذ يرفع القبعة وينزلها كالتّحية وهو يحدّق بالحيّتين.. فقال أسامة محرجاً:
- ماذا أصابك أيّها المجنون؟!.. تلقي التّحية على قدميّ؟!

فنظر إليه بهاء بوجهٍ محمرٍّ وقال:
- أيّها الأبله!.. أنا أحاول أن أكلّم الحيّتين المدرّبتين بهذه الطّريقة فاهدأ قليلاً!
- وماذا لو أنّك قلت لهم اقتلوه بدون أن تقصد؟!.. هذا إذا أخذنا

حسن النيّة..
- لا!.. هذه الكلمة التّي أؤديها هي الكلمة الوحيدة التي أعرفها من لغتهم وهي تعني ابتعدوا.. فاهدأ حتّى أحسن لفظها!

وأخذ بهاء يحاول ويحاول وأسامة يستعجله ويتململ.. وأخيراً بعد المحاولة الخامسة والسّتين تزحزحت الحيّتان وانصرفتا أخيراً فقفز أسامة من الفرح ونزل على الأرض بوزنه يحطّمها ثمّ ركض خارجاً بدون أن ينبس ببنت شفة عندما تراجع فجأةً أمام رئيس العصابة واستطاع بهاء أن يسمعه وهو يهدّده بصوته الأجش:
- توقّعت أنّ هناك خطباً ما أيّها المحتال.. ماذا تفعل هنا كلّ........؟

وسكت قائد العصابة عندما لمح بهاء خلف أسامة بثيابٍ مدنيّةٍ وفوّهة مسدّسٍ.. فعلقت الكلمات في فمه وهو يوجّه مسدسه إلى بهاء ولكنّ بهاء سبق ردّة فعله وأطلق الرّصاصة فوراً هاتفاً بحبور:
- اللّه أكبر.. على المعتدي الظّالم!

وسقط الشّرير على أرض الكوخ صريعاً بينما ازدرد أسامة ريقه من المفاجأة فصرخ بهاء وهو ينظر إلى الباب الخالي من الأتباع:
- هيّا أسرع أخبر الشّرطة!.. لقد جاءنا وحده من فرط غروره!.. لن يهاجموك سيظنّون أنّه هو من أطلق الرّصاصة لأنّهم لا يعلمون بوجودي ويظنّون أنّه الوحيد المسلّح هنا!

فشحذ أسامة رجليه وشجاعته وقفز فوق قائد العصابة وانطلق نحو النّفق المنحدر بينما قال بهاء في نفسه:
- لو تعلم يا فريدا!.. إنّ اللّه القدير قد جعل هذه الرّصاصة قنبلةً ذريّةً

في صفوفهم!

وتحامل بهاء على نفسه وسحب قائد العصابة إلى الدّاخل وأغلق الباب وهو يقول باسماً:
- سيفتدقدونه عاجلاً أو آجلاً!

وصلّى الظّهر وصار يراقب الأحداث من النّافذة مقيّد الرّجلين بجبيرة الأعشاب وفضوله يقول:
- ترى أين أنت يا فريد؟

ثمّ لم يعد يطيق صبراً على فضوله فزحف خارجاً من باب الكوخ ينزلق على آلامه!

(٥)

لم يكن الزّحف على المقعدة مع كل تلك الآلام سهلاً ولكنّ تحمّل الفضول أصعب.. كان من السّهل رؤية جمع العصابة وهم يتربّصون ببنادقهم ينتظرون مرور السّاعة التي عيّنها رئيسهم بفارغ الصّبر..

أمّا من النّاحية الأخرى فكانت نساء القبيلة وأطفالهن يحترقون من الخوف في بيوتهم أمّا الرّجال والشّيوخ والشّبّان فقد كانوا متحلّقين يتحاورون بجديّةٍ وخوف فتارةً تضطرم أصوات الحماس وتارةً تخمد..

فاقترب بهاء من الحلقة يبحث عن صديقه فريد الذي يفترض به أن يكون الزّعيم في مثل هذه المواقف ولمّا لم يستطع رؤيته قال في نفسه:
- لا بدّ أنّه في الوسط وأنّهم متحلّقون حوله ولذلك لم أستطع رؤيته..

ولكن في تلك اللّحظة أحسّ بيدٍ تمسك كتفه فاعترته رجفةٌ من المفاجأة ثمّ التفت مسرعاً ليرى صديقه فريد بوجهه الملوّن يبتسم له ويقول:
- هوّن عليك أيّها الفضوليّ!
- فريد؟؟!.. ماذا تفعل هنا؟.. ألا يفترض بك أن تكون في وسط المعمعة؟!
- كان.. أمّا الآن فقد رحمني الله من ذلك!

- أوجدوا لنفسهم زعيماً يحمل بندقيّةً عوضاً عن من يحمل المسدّس؟!
- لا.. ولكنّهم وجدوا زعيماً يمكن التّواصل معه بدلاً من الأصمّ الأبكم الذي لا يحسن لغتهم فلا يَفهم ولا يُفهم!
- هذه نقطةٌ جيّدة!.. ماذا سيفعلون الآن؟
- أظنّهم لن يسكتوا.. فقد جهّزوا نبالهم وسيقاتلون حتّى الموت!
- جيّدٌ وسيء!.. جيّدٌ من النّاحية الإنسانيّة وسيءٌ من النّاحية الماديّة.. لن يستطيعوا الوقوف أمام البنادق..
- على الأقل يستطيعون الصّمود قليلاً إلى حين تأتي الشّرطة..
- أدعو اللّه ألّا يتأخّر أسامة في الوصول إليهم.. هل أعطيته مفتاح سيّارتك؟
- سيّارتي؟!.. أعطيه مفتاح سيّارتي العزيزة؟!
- دعنا من المزاح.. أعطيته إيّاه أم لا؟
- أولاً أنا لا أمزح.. وثانياً -بناءً على أولاً -لا!

فضرب بهاء وجهه من الغيظ وقال:
- الآن وقت المحسوبيّات؟!.. كل ثانيةٍ قد تعني روحاً على الأقل!
- ما في اليد حيلة.. سبق السّيف العذل.. لم يخطر لي..
- يا رب!.. هذا يعني أنّه سيتأخّر ولابد.. أعاننا اللّه!

وفي هذه اللّحظات افترق رجال القبيلة كلٌّ إلى موقعه وبدا زعيمهم في الوسط.. كان شابّاً أسمر نحيلاً بثيابٍ جيّدةٍ و.. وقبّعة أذناب الحيّات على رأسه!
وبلا وعيٍ صرخ بهاء:
- أنت الذي أنقذتني في البداية عندما جئت إلى هنا!

فاقترب صاحب القبّعة وقال بعربيّةٍ مكسّرة:
- السّلام عليكم.. أنا "مرون".. زعيم القبيلة وابن زعيمها السّابق!

ومدّ يده مصافحاً فصافحه بهاء قائلاً:
- وعليكم السّلام!.. أنا بهاء ابن عمّ أسامة.. أظنّك تعرفه!
- أجل كان صديقي لسنوات.. ولكن هؤلاء الأوغاد..

فعلّق فريد:
- لذلك أنت تعرف لغتنا!
فردّ بهاء:
- ولذلك أسامة يعرف لغة القبيلة أيضاً!

فأجاب "مرون":
- يسعدني لقاءكما.. ولكن يحزنني أنّه ليس وقت التّعارف.. فأمامنا حربٌ ضروسٌ لابدّ لنا من خوضها.. سنطلب من اللّه العون ولن ندعهم يطردوننا ويأخذون خيرات أرضنا بهذه السّهولة!
- طبعاً.. وسنساعدكم!
- كيف؟!.. أعني أراك مريضاً..
- لكنّ عقلي ليس مريضاً والحمد للّه!.. أراكم جهّزتم نبالكم وهي نبالٌ عاديّةٌ تحتاج لتعديلٍ بسيط.. هل عندكم زيت؟
- ما هو الزّيت؟
- سائلٌ أصفرٌ يستخرج من ثمار الزّيتون أو الذّرة..
- لم أعرفه..
فعلّق فريد:
- إنّه سريع الاشتعال.. أعني النّار تكبر فيه بسرعة..

- لا أظنّ أنّنا نملك الذي تعنيان ولكنّنا نملك سائلاً أسود يحبّ النّار..

فصرخ فريد وبهاء:
- إنّه النّفط!

وأردف بهاء مبتسماً:
- هذا أفضل من ذلك الذي كنّا نعني.. عليكم أن تلفّوا نبالكم بقماشٍ مغطّىً بطبقةٍ من هذا السّائل وتشعلو فيه النّار..

فقال فريد بحماس:
- هذا سيوازي البندقيّة.. سنطلق عليهم النّار!
- نعم.. نعم.. أرجوكم يا "مرون" أن تسرعوا فقد بدأ الأوغاد بالاستعداد للهجوم.. لقد انتهت المهلة تقريباً..

فأسرع "مرون" وأعطى الأوامر والتوجيهات لأفراد قبيلته الذين أسرعوا لتنفيذها بحماسٍ وفي غضون عشرين دقيقة كان كلّ شيءٍ جاهزاً فالنّساء والشّيوخ والأطفال جميعهم شاركوا سويّاً في لفّ النّبال وتنفيذ أوامر زعيمهم.. وبدأ بعضهم بإشعال النّار اللّازمة باستخدام الخشب اليابس مع حجر الصّوان التقليدي عندما...
فوووم!..
دوى صوت الرّصاص ودوى صوت صاحبها صائحاً:
- قلنا لكم انقلعوا من هذه الأرض.. لا أن تشعلوا النّار أيّها الأوغاد!

وعلى الفور بدأ رجال العصابة بإطلاق الرّصاص واقتحام المكان بعد أن اشتمّوا بشدّةٍ رائحة مؤامرةٍ وخاصّةً بعد غياب قائدهم كلّ هذا

الزّمن فأخذ رجال القبيلة مواقعهم بينما اختبأ فريد وبهاء بجوار أحد الأكواخ وقال الأخير:
- فريد.. عندي حل.. الولّاعة!
- وماذا ستفعل ولّاعتك الصّغيرة مع كلّ هذه النّبال يا حبيبي؟!
- هكذا!

وأشعل بهاء ولّاعته وألصقها بكوخ القشّ المجاور له وما هي إلّا دقائق حتّى اندلعت النّار تنادي رجال القبيلة الذين لبّوا نداءها فوراً وصاروا يشعلون بها نبالهم ويشعلون النّار في نحور العدو الذين صعقوا من النّتيجة!

وبما أنّ رجال القبيلة يفوقون بالتّأكيد رجال العصابة عدداً فقد اختار الأخيرون أن ينسحبوا تكتيكيّاً على الفور تاركين خسائرهم الفادحة وعلى رؤية فلولهم سمع الجميع صرخة:
- الله أكبر!.. الله أكبر!.. الحمد لك على النّصر يا رب!

واطّلع الجميع إلى أعلى باتجاه الصّوت فرؤوا "مرون" واقفاً على أحد السّطوح رافعاً يديه إلى السّماء والضّحكة قد ملأت فيه والبسمات قد جمّلت محيّاه!

فقال فريد:
- يبدوا أن "مرون" ليس وثنيّاً كبقيّة القبيلة..
- نعم.. بل إن تكبيراته تدلّ على أنّه مسلم!
- ترى ما قصّته؟
- ولماذا كان معتزلاً في الوادي الخارجي؟!

وتبادل الاثنان النّظرات المتفاجئة المستفهمة بينما بدأ أفراد القبيلة بالتّعاون على إطفاء النّار حتّى لا تلتهم القرية وهم يتساءلون؛ ترى ما الذي أشعل النّار فجأة؟!.. يبدو أنّ الرّب الذي يعبده "مرون" قد استجاب له وأنقذنا!

بينما قال بهاء وهو يراقبهم:
- أترى ما أجمل الحياة الجماعيّة يا فريد.. بلمح البصر الجميع صار يعمل من أجل الجميع!
- أجل.. ليت أهل المدينة يتخلّون عن غرورهم ويحتضنون هذه الخصلة النّبيلة بالصّدور والقلوب..

فسكت فريد ثم أردف مبتسماً:
- لا أظنّ أنّ أحداً منهم علم سبب اشتعال النّار المفاجئ.. ربّما يظنّه هؤلاء البسطاء معجزة!
- ومن قال لك؟!.. إنّ المعجزة هي فعل الرّب وإن كانت بطريقةٍ خارقةٍ عن مفاهيمنا.. وإحضاره إيّانا هنا دون تخطيطٍ مسبقٍ منّا وإعطاءه الفكرة لي فجأة هو أيضاً من فعل اللّه وإن كان بطريقةٍ مألوفةٍ بالنّسبة إلينا!
- إذاً يجب أن نقول أنّ اللّه هو من أنقذهم في البداية والنّهاية!
- ومن يشكّ في ذلك يا فريد.. يا صديقي؟!

وضحك الاثنان بينما تحلّق أفراد القرية حول "مرون" يكلّمونه بكلّ حماسٍ وبهجة ولكن طبعاً لم يفهم بهاء أو فريد شيئاً ممّا يقولونه حتّى وقف "مرون" وقال شيئاً بلغتهم أعقبه بقول:

- اللّه أكبر !

وردّد الجميع حسب استطاعتهم:
- اللّه أكبر!
- الحمد للّه!

ورّددوا :
- الحمد للّه!
- سبحان اللّه!
- سبحان اللّه!

فأمسك فريد بكتف بهاء وقال:
- بهاء!.. يا له من موقفٍ مؤثر!.. لا أستطيع أن أكبت دموعي!
- أشعر أنّنا عدنا بالفعل إلى عصور أجدادنا وأنّنا نشهد واحداً من الفتوح الإسلاميّة التي فتحت القلوب قبل الحصون!
فأجاب فريد ضاحكاً:
- فتحٌ إسلاميٌّ في وسط بلاد الإسلام!
- نعم.. يبدو هذا كالخيال لكنّه الواقع..ترى هل لنا أجرٌ في ذلك؟.. لقد شاركنا!
- اللّه كريم!

وبعد ساعةٍ أو أكثر سمع الجميع صوت سيّارات الشّرطة بصافراتها التي تدوي في المكان فخاف أفراد القبيلة واستعدّوا للأسوأ ولكنّهم هدؤوا بعد أن شرح فريد ل"مرون" أنّهم أصدقاء جاؤوا ليقبضوا على الأوغاد الطّامعين..

ومرّت ثوانٍ قبل أن يسمعوا دويّ رصاصات اشتباك الشّرطة مع بقيّة رجال العصابة من بعيد وقد حاول الأخيرون أن يقاتلوا حتّى الموت أو بالأحرى حتّى السّجن!

وبعد ساعةٍ من الترقّب والانتظار جاء أسامة بخطواته الثّقيلة يبشّر القرية بالنّصر وتعانق أسامة مع فريد وبهاء:
- لقد قبضوا عليهم.. لقد قبضوا عليهم!.. لم أتوقّع النّصر بهذه السّهولة!
- سهولة؟!.. عن أيّ سهولةٍ تتحدّث؟!.. لقد خرجنا للتّوّ من معركةٍ داميةٍ.. أقصد حارقةٍ!
- معركة؟!

والتفت أسامة ليرى رجال العصابة المرميين هنا وهناك كما رأى ضحايا القرية المساكين وعائلاتهم تبكي عليهم وتنعاهم فوضع يده على رأسه وقال:
- من شدّة فرحي لم أعد أرى أمامي كما يبدو!
- وما الجديد؟!.. هذا هو أسامة!
- ما بكم؟!.. هؤلا ء أصدقائي لقد مضى عليّ أكثر من سنتين معهم أفرح لفرحهم وأحزن لحزنهم!

فأجابه فريد:
- لم تخبرنا من قبل أنّك عالم آثار؟!
- لست عالم آثار.. ولكنّني اكتشفت مكانهم عن طريق الصّدفة عندما أعجبني هذا المكان الصّخريّ هنا..

- لأنّه يحتمل وزنك وخطواتك الثّقيلة!
- بالضّبط!.. وحينها التقيت بابن زعيم القبيلة"مرون" الذي كان شغوفاً بالعلم وقد بذل جهده ليتعلّم لغتي كي يفهم عليّ ومن جهتي أيضاً بذلت ما في وسعي لأفهم لغته.. ومن هنا نشأت صداقةٌ حميمةٌ بيني وبينه!

فردّ بهاء:
- وبعدها أقنعته بالإسلام..
- أجل.. عوضاً عن عقيدتهم الفاسدة التي لا تمتّ للعقل بصلةٍ.. وقد شرحت له الأمر بمنطقيّةٍ فاقتنع!
- فعلاً عجيب!.. أسامة استطاع أن يكون لطيفاً ويتكلّم بمنطقيّة؟؟!
- إنّه فعلاً غريبٌ بالنّسبة إليّ.. ولكنّي أظنّ طباعي وإن كانت فظّةً بالنّسبة إليكم فهي طبيعيّةٌ بالنّسبة لقومٍ اعتادوا القسوة والخشونة في حياتهم..
- ولهذا أحببتهم.. لأنّهم يحاكونك ويفهمون عليك!
- بالضّبط!!.. ولكن..

وتنهّد أسامة ثمّ أردف:
- بعد أن أسلم "مرون" حدثت نزاعاتٌ شديدةٌ بينهم وحاول أبوه الزّعيم أن يردّه عن ذلك بكلّ قواه ولكنّ اللّه أعانه عليهم.. إذ أنّهم في الواقع اضطرّوا ليلتفتوا إلى خطر العصابة وينشغلوا بهم بدلاً من الشّجار مع ابن زعيمهم فاستغلّ الفرصة واعتزلهم في ذاك الوادي الخارجيّ.. وزاد الأمر سوءاً أن قتل قائد العصابة زعيمهم والد "مرون" فلم يعد لهم زعيم وهم بلا زعيمٍ يضيعون وتذهب ريحهم..

فأجاب فريد:
- وكنت أنا الضّحيّة!

فضحك أسامة وأجاب:
- في الواقع كنت أريد أن أضحك على مظهرك الجديد يا ابن خالي.. إنّه في الواقع لا يليق بك أبداً!

فقال بهاء:
- صحيح!.. فإنّ المدنيّة سبق وطبعت بصماتها العشرة على وجهه!

وضحك الثّلاثة بينما جاء "مرون" راكضاً إلى أسامة وعانقه ضاحكاً وهو يصيح فرحاً وكأنّ الأرض لا تتّسع لفرحته:
- أسامة!.. لقد نصرني اللّه!.. لقد قرر الجميع أن يتّبعوا ديني ويسلموا كما أنّني عدت زعيماً للقبيلة!
- الحمد للّه!.. هذا أفضل خبرٍ سمعته في حياتي يا صديقي.. الآن اطمأننت عليك!
- سترى.. ستصلّي قبيلتي جميعاً جماعةً.. وندخل جميعاً جنّة اللّه يا أسامة!
- إن شاء اللّه!

وتبادل الاثنان الضحكات فرحين وأتمّ اللّه ليلتهم بكلّ خيرٍ وعافيةٍ!..
أمّا ريما.....

كان ذلك الفجر عندما استيقظت ريما لتصلّي صلاة الفجر وتنظّف البيت كعادتها عندما سمعت صوت ضجيجٍ شديدٍ على درج البناء فصرخت:

- يا إلهي!.. عاد أسامة!.. لقد فاتت آخر فرصةٍ للتّنظيف.. وماذا سأفعل بخصوص الفطور؟؟

وفجأةً فُتح الباب ودخل عدّة رجال ثمّ خرج بعضهم وأغلق الباب فأطلّت ريما من خلف الباب ثمّ خرجت إلى غرفة الاستقبال لتستقبل أخاها الذي قال لها باسماً:

- ريما!.. كيف حالك يا أختي العزيزة!
- عجيب!.. أهذا هو أسامة؟!.. دخل بدون أن يقول: "أين الطّعام؟"؟؟!
- ريما!!

فأجاب بهاء الذي كان مستلقياً على الأريكة:

- أهذا منتهى الحنان الذي عندك؟!
- لا.. يكفيك أنّني أحاول أن أبدو سعيدةً بعودته!.. ثمّ -بهاء- كيف تجلس على الأريكة بثيابك هذه؟!.. ألا ترى كم هي متّسخة؟؟

فأجابها أسامة:

- اتركيه!.. ألا ترين كم هو جريح؟!.. لقد جاؤوا به إلى هنا حملاً!
- جريح؟!.. أوه.. اعذروني لم أنتبه..

وغاصت ريما في خجلها بينما تبادل الرّجلان النّظرات فأردفت

أختهما تحاول استدراك الموقف:
- هل أنقذت اكتشافك السّريّ يا أسامة؟

ووضعت ريما يدها فجأةً على فمها وكأنّها قالت شيئاً خاطئاً فأجاب بهاء:
- لا تتعبي نفسك!.. عندما لم أكن أعرف جعلتني أعرف!.. أنصحك ألّا تكوني أمينة سرٍّ أبداً!
- أولاحظت؟؟
- طبعاً.. عمّك يحفر بئراً وأسامة يساعده؟؟!.. أنسيت أنّ عمّك الوحيد هو أبي وأنّنا لم نحفر بئراً منذ فترةٍ طويلة؟!.. وتلك الثّياب التي رميتها في الغسالة فوراً و..و..و..... ماذا ظننتني حتّى لا ألاحظ كلّ هذا؟!
- الواقع أنّي ظننتك أبلهاً ولم تلاحظ!!

فصدم بهاء ثمّ أجاب بامتعاض:
- ريما!!.. ألّا تظنّين أنّك تبالغين بمدى لطفك؟!

فضحكت وقالت:
- إن لم تكن ذئباً أكلتك الذّئاب!!
- حتّى الذّئب ليس ضبعاً!
- ماذا قلت؟!..سامحك اللّه!
- أنت التي جنيتي على نفسك.. أرينا قلباً طيّباً حتّى يكون كلامنا معك طيّباً!
- إنّي أخفي في داخلي قلباً كالسّكر!
- لا تخفيه.. أرينا إيّاه!

- ولكنّني أخاف أن تأكلوه!

ثمّ نهضت بزهوٍّ وقالت:
- صحيح!.. يجب أن أحذّر ياسمين وإلّا تعرّضت المسكينة للرّكل كالعادة.. ياسمين!.. ياسمين!

ومضت ريما تبحث عن قطّتها بينما قال بهاء لأسامة:
- بقي شيءٌ لم أفهمه يا ابن عمّي.. لم كنت تعمل مع العصابة؟
- لقد سرق الأوغاد وثائقي التي كنت أجهزها من أجل أن أدخل مجموعة غينيس.. ومن حزني ذهبت إلى القبيلة فتربّص بي الأشرار وأجبروني على أن أكون رسولاً لهم مع أفراد القبيلة بما أنّني أحسن لغتهم..
- وما مصالح أولئك الأوغاد من احتلال القبيلة؟
- أولئك جماعةٌ من التّجار الجشعين يريدون إبعاد القبيلة حتّى يحصلوا على ثروتهم الحيوانيّة من جلود الأفاعي فثمنها باهظٌ جدّاً كما تعلم.. وقد نالوا قصاصهم العادل!
- صحيح.. تذكّرت.. ما تلك الأفاعي المشؤومة التي تسبّبت لي بكلّ هذه الحروق حتّى حملت إلى هنا حملاً؟؟
- الأفاعي التي تتشبّث بالأرجل.. عندهم أسطورة أنّ من تتشبّث برجله أفعى من ذلك النّوع والحجم فهو شيطان ولذلك كانوا يريدون إحراقك.. أرجو أن يشفيك الله قريباً وخاصّةً أنّي واثقٌ من هذه الأعشاب الطّبيّة التي وضعها لك طبيب القبيلة.. إنّه حاذقٌ جدّاً وعلاجاته مجديةٌ جدّاً عادةًّ!
- إذا أراد الله أن يشفيني -وأرجو منه ذلك- فسيشفيني بالأعشاب أو بالمعجزات فقد تيقّنت أنّ الأمر سواءٌ عنده!.. ولكن ماذا عنك؟.. لم

تشبّثت برجلك؟
- هذا لأنّ أحد رجال العصابة راقب "مرون" وهو يتعامل مع الأفاعي وفهم الطّريقة التي روضها بها واستعمل ذلك بغرض ابتزازي وتهديدي كقيد حديدٍ حيّ.. وبالمناسبة "مرون" هو الوحيد الذي يعلم طريقة ترويض الأفاعي بما أنّه كان وليّ العهد.. فالزّعماء فقط هم من يتوارثون ذلك العلم عندهم!
- فهمت..ولكن لم تشبّثت الأفعى برجلي أنا ما دامت العصابة لم تعلم بوجودي أصلاً؟
- ربّما كانت تلك أحد الحيّات المناوبات عليّ وكانت رائحتك تشبه رائحتي إلى حدٍّ ما يا ابن عمّي!!
- ماذا؟!!.. هي تخطأ وتشتبه وأنا أدفع ثمن غلطتها؟!.. أشعر أنّ القصّة كلّها كانت تستهدف قدميّ منذ البداية!

فضحك الاثنان ثمّ ساد الحزن على وجه أسامة وهو يقول:
- ولكن خسرت فرصتي بأن أكون أوّل من اكتشف تلك القبيلة.. فالجميع رآها وعرفوا مكانها وخاصةً أنّني خسرت وثائقي الثّمينة.. يا خسارة!

وتنهّد أسامة بحرقةٍ بينما قفزت القطّة ياسمين إلى حضنه لتلاعبه وفي ذلك المزاج السّيء رماها فوراً وهو يصرخ:
- النّقطة الوحيدة الإيجابيّة في غيابي هي أنّني ارتحت من هذه البهيمة هذه الأيّام!

فسارعت ريما إلى احتضان قطّتها والتّربيت عليها وقالت بكبرياءٍ مصطنعٍ:

- يا حبيبتي يا ياسمين.. لو عرف أسامة المتوحّش أنّك أنقذت وثائقه لكان قبّل قدميك.. أقصد أقدامك!

ففتح أسامة فاه من الدّهشة وصرخ:
- ولم لم تخبريني منذ البداية بدل أن تتركيني أصارع همومي وأحزاني أيّتها الذّكيّة؟؟
- لأنّني ببساطة كنت أطفأ النّار تحت الطّعام قبل.. أقصد بعد أن أحترق وعندما عدت لم أجدك في أيّ مكان.. فص ملح وذاب!
فتميّز أسامة غيظاً بينما أردفت ريما بضيقٍ:
- واضطررت حينها إلى أكل الطّعام المحترق لوحدي..

ولكنّ بهاء قال:
- حقّاً تقولين يا ريما أنّ القطّة أنقذتهم؟!.. كيف؟
- في الصّباح الذي سبق هجومهم مزقّت ياسمين أحد أوراق أسامة فحملتهم جميعاً وأخفيتهم عنها.. وهكذا تمّ إنقاذهم!

فابتسم أسامة على غير عادته عندما تأكّد من الخبر وركض ليعانق ياسمين:
- شكراً لك أيّتها القطّة العزيز......

ولم يكمل أسامة كلامه لأنّ القطّة كانت عاجلته بضربةٍ خدشت وجهه!.. فاستشاط غضباً وزمجر أسامة كأسامة(أسد)!.. ثمّ خرج من البيت بين نظرات ريما وبهاء يحطّم الأرض أكثر من أيّ وقتٍ مضى وأغلق الباب بقوّةٍ ونزل على الدّرج يسمع دويّ خطواته وزمجراته عندما..... بووووووم!!!!

وسمع الاثنان صوت تحطيمٍ وسقوط جسمٍ ثقيلٍ أو أكثر على الأرض فتبادل بهاء وريما نظرةً وركضت الأخيرة إلى الباب تستطلع الخبر ثمّ شهقت وقالت:

- لقد فعلها!!.. لقد فعلها!!

- ما الذي فعله؟؟

- حطّمه.. حطّم درج البناء!!!!.. إذا لم تتحمّله الحجارة فكيف نتحمله أنا وياسمين؟؟!

وسكتت ريما لبرهةٍ ثمّ أردفت:

- يبدو أنّك ستحلّ ضيفاً عندنا لعدّة أيّامٍ يا بهاء.. حتّى يصلحوا الدّرج ويستطيعوا حملك وإنزالك!

فضرب بهاء وجهه وقال:

- ولم أنا متفاجئ؟!.. هذا هو أسامة!!!

《تمّت بفضل الله العظيم 》

مؤلفات أخرى للكاتب:

